٢ كور ٦، ١-١٠

٢ الأحد الـــ ١٦ بعد العنصرة

مَـــهْـــرُ الـــنِّـــعْـــمَـــة

"نطلبُ إليكم ألاّ تقبلوا نعمة الله عبثاً"

يتكلّم بولس الرسول عن مقدار غنى النعمة التي نلناها بيسوع المسيح. إذا كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل صار جديداً. ولكن، يوضح الرسول، كلّ هذا "من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطى الرسل أن يخدموا هذه المصالحة بين البشر وبينه" (٢ كور ٥، ١٧-١٨). هكذا نبّه بولسُ كهنةَ أفسس وأساقفتَها: "انتبهوا إلى الرعيّة التي اشتراها المسيحُ بدمه الكريم" (أع ٢٠، ٢٨).

ويسمّي بولسُ ذاتَه والرسل، بوعي كبير، "معاونون" ليسوع المسيح في خدمة المصالحة هذه. وإذ يقدّر هو تماماً ثمنَ دم المسيح وثمن نعمة المصالحة مع الله التي تمّتْ به، يسارع ليترجّى أهل تسالونيكي ألاّ يتركوا هذه النعمة التي أُتيحَت لهم مجاناً تذهب عبثاً.

لقد ألفنا نحن في الشرق، مشهد العريس الذي يدفع مهراً باهظاً حين يختار له عروساً عظيمة! فكم بالحري ثمين هو مهرُ "نعمة الله"؟

عندما ارتمى بولس منطرحاً أرضاً على أبواب دمشق، واكتشف سرّ وجمال الحبّ الإلهيّ ورأفة نعمته الغزيرة، عندها صرخ على الفور، "ماذا عليَّ أن أفعل يا ربّ؟"، أي ما المهر الذي تريده حتّى أستحقّ لعشرة نعمتكَ؟ لكن بولس لم يقبل نعمة الله لذاته فقط، لم يقبل المصالحة كغفران له وحسب، بل فهم على الفور أنه صار إناءً مصطفى سيحمل كلمةَ الله إلى كلّ الأمم ويصير إذن مصالِحاً الناسَ مع الله وليس متصالحاً فقط. لقد فهم بولس أنه اختير "كخادم" ومعاون ليسوع في سرّ المصالحة هذا.

يعدّد الرسول هنا بعضاً من الثمن الذي دفعه لأجل هذه "الخدمة"، أي لأجل هذه "الرسوليّة": الصبر الكثير، ضيقات، جلدات، سجون، أتعاب، أسهار، جوع، وهذه كلّها تصوّر أتعابه الجسديّة،

وكما قال: "أغصب جسدي وأقمعه"، فلم يهرب من الآلام ولا من العوز أو الجوع حبّاً بالراحة، ثمّ يذكر الجهاد النفسيّ والروحيّ الداخليّ إلى جانب الأتعاب الجسدانيّة: في طهارة، في معرفة، في طول أناة، في رفقٍ بالروح القدس، في محبّة بلا رياء، في أسلحة البرّ عن اليمين واليسار...

صورة بولس هذه هي المثل الذي ندرك منه الثمن الحقيقيّ للنعمة الموهوبة لنا. وهذا المثل الأعلى يجعلنا ندرك على الفور مقدار العبث الذي نُلحقه بالنعمة المعطاة لنا، أي بالخدمة الموكلة إلينا بسبب من تكاسلنا. بأتعاب كأتعاب بولس يُظهر الرسول ذاته خادماً للكلمة والمصالحة مع الله، بهذه الجهادات الجسدانيّة والروحيّة.

"ليذهب العالم ولتأتِ النعمة". نعم إنّ مذاق النعمة يمحو أتعاب الشدائدِ وكلِّ تلك الفضائل. مَن حمل سرّ المصالحة خدمةً، واقتبل هذه الرسوليّة، لا يعود العالمُ طيّبَ المذاق عنده، ولا يعود فيه شوقٌ غيرُ تقبُّل النعمة، وليس عبثاً. هذه هي الطاقة التي تولّد في المؤمن القوة على تجاوز كلّ الصعوبات الخارجيّة والداخليّة. إنّ عشق النفس البشريّة لهذه العروس الثمينة (النعمة) تجعل صاحبها يهيم وراءها متخلّياً عن كلّ شيء ومحتملاً كلّ شيء في سبيل استقطاب النعمة، وخدمتها.

مَن يركض وراء النعمة يتعب فرِحاً ويسهر مبتهجاً، إنه يبحث عنها عندما يكون في مجد (من الناس) أو حتّى في هوان. إنّ ثمن النعمة الباهظ يعطي لزمن الحياة قيمةً كبيرة وفريدة. إنّ أيّ إهمال في زمن الحياة أو أيّ ضياع منه هو عَبَثٌ في كرامة النعمة المعطاة لنا.

"هوذا الآن وقتٌ مقبول. هوذا الآن يوم خلاص"، هكذا يصرخ بولس بقوّة، مختزلاً نبوءة إشعياء النبي عن زمن تجسّد الربّ يسوع وعن هبة الفداء والمصالحة التي ستتم به. والعبارة تتكلّم في بدايتها عن وقت مقبول يستجيب الله فيه، وعن يوم خلاص يُعين الله فيه (إش ٤٩، ٨؛ ٢ كور ٦، ٢). الوقت المقبول يشير إلى الفرصة التي سُنحَت لنا الآن، فعلينا ألاّ نخسرها وأنْ نجدّ في الطلب؛ لحظة الله يُعلن زمن الافتقاد والاستجابة. وهذا هو الدور البشريّ والمسؤوليّة الشخصيّة في بذل أقصى الجهد، لأن ما هو أقل من ذلك يكون "عبثاً". "سيروا ما دام لكم النور" وجدّوا في السير، لأن الزمن قصير والأيّام شريرة، والغاية ثمينة.

ثمّ تتكلّم الآية في قسمها الثاني عن عضد الله. فإذا ما شعر الإنسان أنه مهما أسرع ومهما ركض فإن المنال يبقى بعيداً، عندها ليتذكّرْ قولَ النبوءة أنّ اليومَ يومُ الخلاص الموعود بأن الله سيُغيث فيه كلَّ مَن يطلب من كلّ قلبه. نعم، وقتُ الفرصة الذهبية، ويومُ العون الإلهيّ الفريد المتاح، هما سببان عميقان جدّاً يجعلان كلّ لحظة في الحياة "وقتاً مقبولاً ويوم خلاص" ثميناً جداً.

الحياة من أجل المسيح ربحٌ؛ والموت لأجله ربحٌ أيضاً. كلّ زمن يرتبط بيسوع في موت أو حياة هو ربحٌ عظيم. ومهرُ هذا الربح أتعابُ الجسد وجهاداتُ الفضيلة. يقدّم الإنسان كلّ ما في وسعه. ولّما كان المهر يسترضي الواهب فقط ولا يشتري الهبة، فإن مجانيّة الحبّ والعون الإلهيّين تجعل الجهاد ممكناً وجميلاً.

نعم، يظهر مَن يدفع ثمناً باهظاً كهذا وكأنه يخسرُ كلّ شيء، إذ إنه يعطي كلّ ما لديه من مال وصحة وقوى وإرادة، وكل القلب. لكنّه يضع كلّ ذلك مهراً لعروس لا يشتريها ثمن ولا يساويها أيُّ مهرٍ إلاّ هبة الحبّ الإلهيّ. لذلك يختم بولس الرسول صرخته بدهشة واعتراف بالعجز والشكران. نظهر كأنّا فقدنا كلّ شيء، "ولا شيء لنا ونحن نملكُ كلّ شيء"، آمين.